الباب الثامن :

التلوث الضوضائى

"لقد أصبح الهواء المحيط بنا في كل مكان ملوثًا بموجات صوتية مزعجة بسبب تكدس السكان في المدن؛ بأعداد تفوق استيعاب تلك المدن، ولعب الكرة في الشوارع والطرقات، وما يصاحبه من صراخ الأطفال، وصياح الباعة الجائلين. كما ازدحمت الشوارع بوسائل النقل الحديثة بأنواعها المختلفة، وما تحدثه في أثناء سيرها من ضجيج، وما ينشأ عن سوء استخدام أجهزة التنبيه بها؛ وخاصة بالقرب من المدارس والمستشفيات، وظهور الطائرات النفاثة، ووسائل الإعلام المختلفة والتي تتمثل في أجهزة البث الإذاعي والمرئي بأحجامها المختلفة في المنازل والمقاهي العامة والمحلات التجارية، وما يتبع ذلك من رفع أصواتها إلى حد الإزعاج، إضافة إلى الأجهزة المتنوعة (الخلاط – التكييف – الشانيور – المكنسة الكهربائية) التي سخرها الإنسان لراحته ورفاهيته".

المؤلف

مقدمة

يعرف التلوث الضوضائي بأنه الأصوات العالية وغير المألوفة وغير المرغوب فيها، والتي تسبب الضرر والأذي للإنسان نتيجة التعرض الدائم لها.

ويرتبط التلوث السمعي أو الضوضائي ارتباطاً وثيقاً في الأماكن المتقدمة وخاصة الأماكن الصناعية، وتحدث عادة بسبب التقدم الصناعي. ووحدة قياس شدة الضوضاء هي الديسيبل وهي الوحدة المعروفة عالمياً لقياس الصوت.

وتعتبر الضوضاء من فصائل التلوث العديدة حيث أنها صنفت بأنها ضارة على صحة الإنسان، الحيوان، الطيور والنبات وأشياء غير حية أخرى.

إن مشاكل التلوث الضوضائي تزداد يوم بعد يوم وخصوصا في المناطق الحضرية " المزدحمة بالسكان "، وبجانب الطرق السريعة، والمطارات، والمناطق الصناعية ومناطق أخرى يوجد بها حركات إنشائية كالبناء وتنفيذ مشاريع.

الضوضاء .. ظاهرة قديمة:

الضجيج أثر من الآثار التي تصاحب وجود الإنسان ومحاولاته المستمرة لتغيير أنماط الطبيعة بما يحقق له مزيدًا من الرفاهية والحياة السهلة المريحة.

والضجيج قديم قدم الإنسان على هذه الأرض، وإن اختلفت صوره وأشكاله، وتفاوتت شدته وحدّته. وتشير الكتابات على بعض الألواح الطينية التي وجدت في مدن سامر وبابل إلى الملل والسأم من المدينة أو البلدة التي تعج بالضوضاء الصادرة عن الإنسان ونشاطاته وآلاته وأدواته[1].

أما اليوم، فلقد أصبحت الضوضاء أحد مصادر التلوث التي أصابت عناصر البيئة الطبيعية وأتلفتها، بما فيها الإنسان نفسه (باعتباره أحد عناصر البيئة وأهمها).

---

(1) د. حسن أحمد شحاتة ، التلوث الضوضائي .. وإعاقة التنمية ، مكتبة الدار العربية للكتاب ، القاهرة ، 2001م.

فهذا النوع من أنواع التلوث لم يكن موجودًا بالصورة التي نعرفها اليوم. فهو أحد أنواع التلوث التي عرفتها البشرية حديثًا، والتي جاءت كنتيجة طبيعية وحتمية لما شهدته الخمسون سنة الأخيرة من القرن العشرين، من تقدم مضطرد في شتى دروب الحياة، وما تبع ذلك من ظهور وسائل انتقال ونقل حديثة وعملاقة، وآلات وماكينات ضخمة تستخدم في أغراض صناعية متعددة.

ضوضاء المدن:

أصبحت الضوضاء السمة الرئيسية للمدن، والتزاحم هو المسئول الأول عن ذلك، ويعتبر معظم سكان المدن أن الضوضاء الزائدة تحتل المرتبة الثانية مباشرةً بعد تلوث المياه بين القضايا البيئية التي تحظي باهتمامهم. ولقد ظهر التلوث الضوضائي بظهور الوسائل الحديثة من الطائرات النفاثة، والموسيقى الصاخبة وغيرها من أنواع الموسيقى، والسيارات وغيرها من مصادر الصوت العالي. وبكل أسف لم يهتم الإنسان بالوقاية من أخطار الضوضاء بقدر ما اهتم بالوقاية من أخطار التلوث الأخر السامة والإشعاعية وغيرها.

يمكن قياس الضوضاء بطرق فيزيائية يُعبّر عنها بالديسيبل أو الفون، فمثلاً الضوضاء الناجمة عن بوق تساوي 100 ديسيبل. وقد تصل حركة الأجسام وحفيف الملابس إلى 20 ديسيبل. ولكن الضوضاء التي تزيد شدتها عن 30 فوناً تسبب اضطرابات نفسية، والضوضاء التي تبلغ ما بين 60 و90 فوناً تسبب متاعب نفسية وعصبية وعيوباً في درجة السمع. أما الضوضاء التي تزيد عن 120 فوناً فتؤثر تأثيراً مباشراً على خلايا الكتلة العصبية داخل الأذن.

تعريف الضوضاء:

تعرف الضوضاء بأنها: "تلك الأصوات غير المرغوب فيها نظرًا لزيادة حدتها وشدتها وخروجها عن المألوف من الأصوات الطبيعية، التي اعتاد على سماعها كل من الإنسان والحيوان".

ويندرج تحت هذا التعريف جميع الأصوات الصادرة من الآلات الثقيلة والسيارات والطائرات وأجهزة التكييف، وغيرها

التلوث الضوضائي:

يمكن تعريف التلوث الضوضائي بأنه: "الضوضاء التي زادت حدتها وشدتها وخرجت عن المألوف والطبيعي إلى الحد الذي يسبب الأذى والضرر للإنسان والحيوان والنبات، وكل مكونات البيئة".

ونستطيع أن نجزم بأن الموسيقى الصاخبة تعدّ صورة من صور التلوث الضوضائي.

صور التلوث الضوضائي:

لقد أصبح الهواء المحيط بنا في كل مكان ملوثًا بموجات صوتية مزعجة بسبب تكدس السكان في المدن؛ بأعداد تفوق استيعاب تلك المدن، ولعب الكرة في الشوارع والطرقات، وما يصاحبه من صراخ الأطفال، وصياح الباعة الجائلين. كما ازدحمت الشوارع بوسائل النقل الحديثة بأنواعها المختلفة، وما تحدثه في أثناء سيرها من ضجيج، وما ينشأ عن سوء استخدام أجهزة التنبيه بها؛ وخاصة بالقرب من المدارس والمستشفيات، وظهور الطائرات النفاثة، ووسائل الإعلام المختلفة والتي تتمثل في أجهزة البث الإذاعي والمرئي بأحجامها المختلفة في المنازل والمقاهي العامة والمحلات التجارية، وما يتبع ذلك من رفع أصواتها إلى حد الإزعاج، إضافة إلى الأجهزة المتنوعة (الخلاط – التكييف – الشانيور – المكنسة الكهربائية) التي سخرها الإنسان لراحته ورفاهيته.

ومن صور التلوث الضوضائي في مجتمعاتنا، ممارسة بعض الأفراد للعادات والتقاليد الاجتماعية البالية التي لا هدف منها ولا فائدة، مثل: إطلاق الأعيرة النارية في المناسبات السعيدة والأفراح، واستخدام مكبرات الصوت ذات الأصوات العالية جدًا في المواسم والمآتم والحفلات بدون وعي أو وازع أخلاقي. كذلك، دق الهون النحاسي بجنون في مناسبة الاحتفال بمرور أسبوع على ميلاد الطفل.

ويضاف إلى ذلك كله، انتشار ورش تصليح السيارات وورش السمكرة والدوكو

في الشوارع المكتظة بالمنازل والسكان، وما تسببه من إزعاج وإقلاق للراحة، ناهيك عن المصانع الكبيرة وما يصدر عنها من أصوات مزعجة.

مستويات الضوضاء والآثار الناجمة عنها:

هناك أربع مستويات من الضوضاء المؤثرة على الإنسان وهي :

1- **المستوى 40–50 ديسيبل**: يؤدي إلى تأثيرات وردود فعل نفسية في صورة قلق وتوتر وخاصة لدى الأطفال وطلبة المدارس .
2- **المستوى 60–80 ديسيبل**: وله تأثيرات سيئة على الجملة العصبية .
3- **المستوى 90–110 ديسيبل**: ويؤدي إلى انخفاض شدة السمع .
4- **المستوى الأعلى من 120 ديسيبل**: ويسبب ألماً للجهاز السمعي وانعكاسات خطيرة على الجهاز القلبي الوعائي وغيرها .

أنواع التلوث الضوضائي:

تلوث مزمن: هو تعرض دائم ومستمر لمصدر الضوضاء وقد يحدث ضعف مستديم في السمع.

تلوث مؤقت دون ضرر: تعرض لفترة محدودة لمصدر ضوضاء، كضجيج الشوارع والأماكن المزدحمة أو الورش، ويؤدي إلى ضعف مؤقت في السمع يعود لحالته الطبيعية بعد فترة بسيطة.

تلوث مؤقت ذو أضرار فسيولوجية: وهو تعرض لفترات محدودة لمصدر أو مصادر الضوضاء ومثال ذلك التعرض للمفرقعات، ويؤدي إلى إصابة الأذن الوسطى وقد تحدث تلف داخلي.

أهم تأثيرات الضوضاء :

(1) التأثيرات النفسية :

إن الضجيج دون ال 60 ديسيبل يؤثر في قشرة المخ ويؤدي إلى استثارة القلق وعدم الارتياح الداخلي والتوتر والارتباك وعدم الانسجام والتوافق .

(2) نقص في القدرة على العمل :

تبين الدراسات أن الأشخاص الذين يعملون في أجواء مستوى الضجيج فيها مرتفعاً، يعانون من أمراض في الجملة العصبية أكثر بثلاث مرات ممن يعملون في الأجواء الهادئة وأمراض ارتفاع ضغط الدم أكثر ب 1.4 مرة ، وأمراض جهاز السمع أكثر ب 18.3 مرة، كما أن 71 ٪ ممن يشكون من الضجيج المرتفع يشكون أيضاً من الصداع والتحسس والتعب السريع وطنين الأذن ، 48 ٪ يشكون من النوم غير الهادئ والأحلام المزعجة وفقدان جزئي للشهية إضافة إلى الشعور بالضيق والانقباض، وهذا ينعكس في قدراتهم على العمل والإنتاج .

(3) الآثار الفسيولوجية:

للضوضاء أضرار عديدة خطيرة أحياناً، فضوضاء الشوارع بالمدن تؤثر في الدورة الدموية، إذ تتسبب في اضطرابات في وظائف القلب ورفع ضغط الدم، وتنشئ اضطرابات الجهاز العصبي المستقل ذاتياً، مستقلاً بذلك عن الإدراك الذاتي للضوضاء. وكذلك أثناء النوم عندما لا يكون هناك إدراك للضوضاء. كذلك كثرة الإجهاد السمعي يعمل على رفع ضغط السائل المخي والحبل الشوكي.

ومما تحدثه الضوضاء أيضاً التأخير في تقلصات المعدة والنقص في افرازتها، كما توجد أمراض مصاحبة للضوضاء تتمثل في ارتفاع ضغط الدم والآلام العصبية (النورليجا)، واضطرابات في الأيض البروتيني وفي تنظيم المواد الكربوهيدراتية. وتؤثر وتؤثر المثيرات السمعية على منحيات الجلوكوز، لذلك فإن مرضى السكر يستجيبون بحساسية أكثر للضوضاء. ويمكن حصر تأثير الضجيج الفسيولوجي في نقاط، هي:

- الصداع.
- طنين الأذن.
- ارتفاع ضغط الدم.
- القرح.
- الأرق.
- أمراض التنفس المزمنة.
- التطور السلبي للجنين.

(4) الآثار النفسية

استمرار الضجيج وارتفاع الصوت عن المعدل الطبيعي يؤدي إلى نقص النشاط الحيوي والقلق وعدم الارتياح الداخلي والارتباك وعدم الانسجام. فالتعرض للضوضاء لمدة ثانية واحدة يقلل من التركيز لمدة 30 ثانية. ويمكن حصر تأثير الضجيج النفسي في نقاط، هي:

- العصاب الحصري.
- التهيج والانفعال.
- سلوك غير اجتماعي.
- العنف.

(5) التأثيرات العصبية والوعائية .

(6) التأثير علي السمع:

ويتدرج من تأثير مؤقت، إلى تأثير ذو تأثير على مستوي السمع، إلى حدوث الألم الكامل.

الإسلام .. والضوضاء:

لقد كان للإسلام موقف من الضوضاء منذ زمن بعيد. فمنذ قرون عديدة، وقبل أن يعرف العالم التلوث الضوضائي وآثاره الضارة، نجد أن الإسلام قد تصدى للضوضاء وحاربها من خلال الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة.

فهناك الآيات القرآنية العديدة التي تنهى عن رفع الصوت، وتأمر بخفضه في جميع الأحوال والمواقف، وحتى عند تلاوة القرآن الكريم. كذلك نجد أن السُنة المطهرة قد نهت عن إحداث الأصوات العالية التي تسبب الضجة والضجيج، فهناك العديد من الأحاديث النبوية الشريفة التي نهت عن رفع الصوت، وأمرت ودعت إلى الاعتدال.

كما أن الفقهاء أكدوا على ذلك ونهوا عن كل ما يسبب الضرر والأذى للإنسان إعمالاً للقاعدة الفقهية التي تقول: "درء المفاسد مقدم على جلب المصالح". فدفع الضرر والمفاسد مقدم على جلب الخير والمنفعة.

وسوف نتناول – في الصفحات القادمة – موقف كل من القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة، وفقهاء المسلمين على مر العصور، من الأصوات العالية (الضوضاء).

القرآن الكريم .. والضوضاء:

الصوت العالي.. والضجة والضوضاء.. من الأمور غير المستحبة في الإسلام، بل إنها تندرج تحت الأمور المكروهة والمنهي عنها. فالإسلام يربي الإنسان على أن يحيا حياته في هدوء وسكينة، يتدبر ويتأمل في مكونات الكون من حوله، ويتفكر في النعم العظيمة التي أنعم الله بها عليه، والتي لا تعد ولا تحصى، ويؤدي ما عليه من واجبات وفروض ونوافل في طمأنينة وخشوع. فالإسلام هو دين السلام والأمن والأمان في كل أمور الحياة، بما فيها أمور العبادة أيضًا.

فلقد نهى الإسلام المسلم عن إصدار الصوت العالي، حتى ولو لقراءة القرآن وهو قائم يصلي، وحبب إليه أن يؤدي الصلاة في سكينة وبصوت منخفض لا يسبب الأذى أو الضرر للآخرين. فنجد القرآن الكريم يأمر المسلم بعدم الجهر بالصوت العالي في أثناء الصلاة وأمره بالاعتدال في ذلك، فقال تعالى: ﴿**وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً**﴾[1].

وإذا كان هذا هو توجيه الإسلام للإنسان المسلم وهو قائم بين يدي الله – سبحانه وتعالى – فما أحرى به أن يتوخى ذلك في كل أمور حياته، وأن يجعل من ذلك سلوكًا في كل مناحي حياته.

وأكثر من ذلك، ما أمر به القرآن الكريم المسلمين من عدم رفع أصواتهم فوق صوت النبي صلي الله عليه وسلم وجعل ذلك من صفات المؤمنين المطيعين. ومن الأمور المؤكدة، أنه لم يؤثر عن النبي صلي الله عليه وسلم أنه كان يتكلم بصوت عال في الصلاة أو المجالس أو غيرها. ولقد جعل القرآن من خفض الصوت دليلاً على تقوى الإنسان وعمله الصالح، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ**

---

(1) سورة الإسراء: من الآية 110.

صَوْتِ النَّبِيِّ وَلاَ تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ. إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾[1].

وكما هو واضح من الآيتين السابقتين، فهناك مقارنة بين فئتين: إحداهما تجهر بالقول بالصوت المرتفع، وهذه الفئة هي الخاسرة التي تضيع أعمالها هباء. وقد نهى القرآن الكريم المسلمين المؤمنين أن يقع منهم ذلك الفعل. أما الفئة الأخرى، وهم هؤلاء المسلمين المؤمنين الذين لا يرفعون أصواتهم ولا يحدثون ضجة أو ضجيجًا، فهم أهل التقوى، وقد وعدهم الله – سبحانه وتعالى – بالمغفرة والأجر العظيم.

ولقد رسم القرآن الكريم صورة قبيحة منفرة لذلك الشخص الذي يتحدث بصوت عال مرتفع، فشبّه صوته العالي بصوت الحمار[2]. وهل هناك أقبح من صوت الحمار؟!. ولذلك، فإن الإسلام يأمر الإنسان بأن يخفض من صوته، فقال تعالى: ﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾[3].

والأصوات العالية (مرتفعة الشدة) لا تسبب الضوضاء والضجيج فحسب، بل إنها تسبب الضرر الشديد بالإنسان، والذي قد يفتك به ويؤدي إلى هلاكه ووفاته. ومن المعروف أن قوة الصوت التي تزيد عن (150) ديسيبل، مثل: أصوات القنابل الضخمة أو المفرقعات الهائلة الناجمة عن القنابل الذرية والهيدروجينية، تؤدي إلى هلاك الإنسان والحيوان في الحال. فمثل هذه الأصوات تؤدي إلى انفجار الرئتين وتوقف القلب مما يسبب الوفاة السريعة.

ومما تجدر الإشارة إليه تلك الصورة الرائعة التي صور فيها القرآن مدى الرعب والفزع والهلع من الأصوات العالية الشديدة، التي تصاحب حدوث الرعد والبرق؛

---

(1) سورة الحجرات: الآيتان 2، 3.

(2) يطلق على صوت الحمار اسم "نهيق". وهو صوت بغيض، تأنفه الأذن وينزعج منه الإنسان.

(3) سورة لقمان: الآية 19.

فقال تعالى: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾[1].

ففي ذلك إشارة إلى أن الضوضاء والضجيج والأصوات العالية التي تصاحب حدوث ظاهرة الرعد والبرق، وما تسببه من خوف وهلع ورعب، قد تؤدي إلى الوفاة نتيجة هبوط في القلب أو الدورة الدموية.

السنة النبوية .. وموقفها من الضوضاء:

كما وضحنا – في الصفحات السابقة – فإن القرآن الكريم قد أمر – في العديد من المواقف – المسلم المؤمن بأن يخفض من صوته، حتى في أثناء تلاوة القرآن. وقد جعل ذلك بمثابة العمل الذي يؤهل المسلم المؤمن للفوز بمغفرة الله والأجر العظيم.

وفي الحقيقة، فإن المأثور من السنة النبوية قد أكد – في مواطن عديدة ومواقف كثيرة – ما أمر به القرآن ووجه إليه من ضرورة خفض الصوت.

ومما يؤثر عن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم أنه رفض استخدام الأبواق (الميكروفونات) في الأذان، أو استخدام الطبول للإعلان عن الحروب، لما تسببه من ضوضاء وضجيج وإزعاج. وما قد ينجم عنها من أذى وضرر للناس. ومما يؤثر عنه صلى الله عليه وسلم في هذا الشأن اختياره، بلالاً[2] رضي الله عنه، ليؤذن للصلاة في وقتها.

ومن المواقف – المتعددة – التي نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن الوقوع فيها لما يصدر عنها من أصوات عالية وضجيج، ما ذكره أبو قتادة؛ فعن أبي قتادة قال: بينما نحن نصلي مع رسول الله ﷺ إذ سمع جلبة خارج المسجد، فقال: (ما شأنكم؟)، قالوا: استعجلنا إلى الصلاة، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: (لا تفعلوا، إذا أتيتم الصلاة فعليكم بالسكينة، فما أدركتم فصلّوا وما سبقكم فأتموا).

---

(1) سورة البقرة: الآية 19.

(2) وقع اختيار الرسول صلى الله عليه وسلم لسيدنا بلال – رضي الله عنه – للآذان للصلوات، لأن له صوتًا رخيمًا.

وكما هو واضح من الحديث الشريف، فهو يحمل نهيًا مؤكدًا عن الضجة والضجيج، حتى ولو كان ذلك يحدث بهدف إدراك أهم العبادات وأحد أركان الإسلام؛ وهي الصلاة.

كما نهى الرسول الكريم عن الضجة والصخب في الأسواق، فعن أبي هريرة[1] – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله صلي الله عليه وسلم: (إن الله يبغض كل جعظري[2] جواظ[3] سخاب[4] في الأسواق، جيفة[5] بالليل، حمار بالنهار، عالم بأمر الدنيا، جاهل بأمر الآخرة)[6].

فلقد عرض هذا الحديث الشريف بعض الصفات التي يبغضها الله – سبحانه وتعالى – ويكره أن تكون في عبده المسلم المؤمن، ومن هذه الصفات المذمومة البغيضة: إحداث الجلبة والصياح والضجيج في الأسواق.

ففي هذا الحديث الشريف دعوة إلى التحلي بالهدوء وخفض الصوت عند التعامل بالبيع والشراء في الأسواق. فربما كان من بين رواد السوق من تؤذيه الضوضاء وتضره الأصوات العالية، وتؤثر على صحته وحالته[7].

وهناك من المواقف – والتي علي الرغم من انخفاض الصوت خلالها – ما نهى فيها الرسول صلي الله عليه وسلم عن إحداث ذلك الصوت، حيث إن الصوت المنخفض إذا ما تعددت مصادره أصبح أحد مصادر الضجة والضوضاء. ولذلك، نهى الرسول الكريم صلي الله عليه وسلم عن إحداث أي صوت والخطيب يخطب من فوق

---

(1) أبو هريرة رضي الله عنه هو صحابي جليل، وهو أحد أكثر رواة الحديث.

(2) جعظري: هو الفظ الغليظ أو المتكبر الجافي عن الموعظة.

(3) جواظ: هو الضخم المختال في مشيته.

(4) سخاب: هو الرجل الكثير الجلبة والضجاج والخصام.

(5) جيفة: رمة، وهي بقايا الحيوان الميت.

(6) روى هذا الحديث "ابن حيان" في صحيحه.

(7) يمكن الاطلاع على من مزيد من التأثيرات الصحية، والأضرار التي تصيب الإنسان وأجهزة جسمه المختلفة، بسبب الضوضاء بالاطلاع على كتاب "الضوضاء .. وإعاقة التنمية" د/ حسن أحمد شحاتة.

المنبر (يوم الجمعة)، لما يمكن أن يسببه ذلك من ضجة تؤثر على سماع المصلين لصوت الخطيب، كما أنها تؤدي إلى حدوث الهرج، مما يزول معه جو الخشوع والسكينة التي يجب أن يتحلى بها المسلمون في موقف من أعظم المواقف، وفي مكان من أقدس الأماكن (المسجد)، وهو الإنصات إلى خطبة الجمعة. ولذلك، فقد جعل الرسول الكريم حدوث ذلك الصوت الخفيض سببًا في حدوث اللغو الذي يذهب بالثواب والأجر، فيصبح من أصدر ذلك الصوت، بلا أجر ولا ثواب.

فلقد روي أن الرسول صلي الله عليه وسلم قال: "إذا قلت لصاحبك والإمام يخطب: صه[1] فقد لغوت، ومن لغى فلا جمعة له".

ولك – عزيزي القارئ – أن تدرك مدى الفوضى التي يمكن أن تحدث لو أن كل مُصلٍ تحدث – ولو بكلمة واحدة بصوت منخفض – مما يسبب ضجة وضوضاء لم يعد أحد قادرًا على الإنصات معها.

إن الاعتناء بالتشجير، وخاصة في الشوارع المزدحمة بوسائل المواصلات، وكذلك العمل على زيادة مساحة الحدائق والمتنزهات العامة داخل المدن؛ وبخاصة المدن الكبيرة والمدن الصناعية، يعدّ إحدى أهم الوسائل المستخدمة لمكافحة الضوضاء والأصوات العالية والتقليل من شدتها.

فمنذ أكثر من (14) قرنًا، نجد رسولنا الكريم صلي الله عليه وسلم يحرص ويوصي بزراعة الأشجار، فعن أنس – رضي الله عنه – عن النبي صلي الله عليه وسلم أنه قال: « إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع ألا يقوم حتى يغرسها، فليغرسها »[2].

ولقد ثبت علميًا[3] أن وجود ساتر من الأشجار يحجب حوالي (8) ديسيبل[4] من

---

(1) وفي رواية أخرى: "أنصت".

(2) رواه البخاري.

(3) محمد كامل عبد الصمد – ثبت علميًا – الجزء الأول – الدار المصرية اللبنانية – 1997م.

(4) وحدة قياس شدة الصوت.

ضوضاء الطريق: فلقد أثبتت الدراسات أن أشجار (الفيكس) تحقق أكبر قدر لتقليل الضوضاء في مجال الترددات المرتفعة، لما لها من كثافة سميكة وعرض وسُمك أوراقها.

موقف الفقهاء .. من الضوضاء:

لقد أثبتت الأبحاث والدراسات والتحليلات الحديثة الأضرار الخطيرة التي يصاب بها الإنسان الذي يتعرض بصفة دائمة ومباشرة للضوضاء العالية والشديدة. ولذلك، فإن الضوضاء تعدّ من مصادر الضرر التي يجب دفعها، والعمل على محاربتها في جميع صورها وأشكالها.

ومن الثابت والمؤكد أن الإسلام يحارب الضرر ويحرمه. فقد روى عمر بن يحيي المازني عن أبيه أن رسول الله صلي الله عليه وسلم قال: "لا ضرر ولا ضرار"[1]. ويتضح من هذا الحديث الشريف أن الإسلام ينهى عن الضرر في جميع صوره وأشكاله. ومن الثابت والمؤكد في عصرنا الحديث أن الضوضاء والأصوات العالية تسبب العديد من الأضرار الصحية الخطيرة والقاتلة للإنسان والحيوان. ولذلك فهي تدخل في المعنى الذي يقصده ذلك الحديث الشريف.

ومن البديهي والمنطقي أن منع الضرر والفساد ومحاولة منع حدوثه ووقوعه أولى وأجدر من معالجته بعد حدوثه ووقوعه. وفي الحقيقة، فإن هذا القول يتفق تمامًا مع القاعدة الفقهية القائلة: "درء المفاسد مقدم على جلب المصالح".

وقد قسم الفقهاء الضرر الناتج عن الأصوات العالية (الضوضاء) إلى قسمين، وهما:

القسم الأول: ضرر يجب درؤه

ويندرج تحت هذا القسم الأصوات والذبذبات الناتجة عن حركة البوابات، إذ إنها تؤثر على سلامة المباني المجاورة لها. يروي ابن الرومي (المتوفى عام 179هـ) في كتابه "الإعلان بأحكام البنيان": أن مجموعة من الناس أقاموا بوابة لحارتهم، يفتح بابها على

---

(1) رواه الإمام مالك في كتابه "الموطأ".

حائط جار لهم، فقاضاهم هذا الرجل بدعوى أن فتح الباب وغلقه المستمرين قد أضرا به وأقلقا راحته. فتحرى ابن الرومي الأمر، ووجد أن الحائط يتذبذب من جراء فتح الباب وغلقه، فأمر القاضي بهدم البوابة وإزالة بابها.

فهذا يدل على أن تكرار حدوث الصوت وما يصاحبه من إزعاج وما يسببه من قلق وعدم راحة، هو ضرر وأذى لا يرضى به أو عنه الإسلام. وبذلك كانت فتوى القاضي بإزالة هذا الباب بسبب ما يحدثه من أصوات، وإن كانت قليلة، إلا أنها تؤذي الجيران.

وهذه الفتوى تؤكد على إزالة مصدر الصوت إذا ما ثبت أنه يسبب الأذى والضرر للآخرين.

القسم الثاني: ضرر يمكن احتماله

ويندرج تحت هذا القسم، الأصوات التي تسبب الضيق دون الضرر. وقد اختلف الفقهاء في حكمهم عليه، فلم يعدّه الفقهاء الأوائل ضررًا يجب درؤه. وذهب ابن القطان إلى عدم جواز منع أحد من ضرب (دق) الحديد في منزله، وإن كان يفعله ليل نهار، بشرط أن يعتمد معاشه على ذلك.

أما من لحقهم من الفقهاء، فقد كان لهم رأي مغاير، فعدّوا الصوت والصدى ضوضاء ومصدر للقلق والضرر يجب درؤه.

وقد أعرب القاضي ابن عبد الرافع في تونس، عن تفضيله منع بناء حظائر الحيوانات متاخمة للمباني، لما تسببه حركة الحيوانات الدائمة في أثناء الليل والنهار من إزعاج قد يمنع الجيران من النوم، أو يسبب لهم القلق والإزعاج وعدم الراحة.

مما تقدم، نرى أنه – بوجه عام – عدّ الفقهاء الأصوات العالية والذبذبات الشديدة مصدرًا للضرر والأذى يجب منعه.

ومن هذا المنطلق، اهتم المسلمون القدامى ببناء المصانع خارج المدن، وبخاصة تلك

التي ينتج عنها تلوث صوتي أو كيميائي أو أي صورة أخرى من صور التلوث البيئي[1].

فتاوى الفقهاء المعاصرين بشأن الضوضاء:

(1) منع الميكروفونات في (12) ألف زاوية:

فلقد تقرر البدء في تنفيذ قرار رفع مكبرات الصوت من (12) ألف زاوية موجودة في مصر، وكذلك قصر استخدام المكبرات في المساجد وعددها (70) ألف مسجد، على الأذان فقط. جاء ذلك خلال اجتماع وزير الأوقاف مع قيادات الوزارة.

وأكد وزير الأوقاف أن تقليل ضوضاء (الميكروفونات) سيكون في صالح المواطنين وبخاصة المرضى والطلاب.

وقال الوزير: إن القرار الذي أصدره بمنع "الميكروفونات" نابع من تعاليم الإسلام السمحة، التي تحرص على الإنسان. فليس هناك نص قرآني أو حديث شريف يبيح استخدام مكبرات الصوت في المساجد أو "الزوايا" قبل الفجر لترتيل القرآن وإنشاد الابتهالات الدينية. وقال: "إن الحد من هذه المشكلة يقضي على شكوى المواطنين في كل المحافظات"[2].

(2) حكم الدين .. في استخدام مكبرات الصوت:

القارئ (ح . ن) من الإسكندرية، بعث يقول في رسالته[3]: "اعتاد الناس على استعمال مكبرات الصوت في كثير من مناحي الحياة تعبيرًا عن أفراحهم وأحزانهم، فقد كثر استخدام الميكروفون في كل مناسبة. فما حكم الدين في استخدام مكبرات الصوت، وخاصة إذا كان استخدامها في إذاعة آيات من القرآن الكريم أو درس وعظ وإرشاد في المساجد؟

---

(1) مهندس/ محمد عبد القادر الفقي، البيئة: مشاكلها وقضاياها وحمايتها من التلوث، مكتبة ابن سينا، 1993م.

(2) جريدة الأخبار: العدد 14916 – الجمعة 18/ 2/ 2000م – ص1.

(3) الشروق (صوت الأزهر): العدد 15- الجمعة 7/ 1/ 2000م ص6.

ويجيب عن هذا التساؤل الدكتور زكي محمد عثمان[1]، ويقول: "أصبحنا نستخدم مكبرات الصوت في حياتنا بشكل يومي، دون أن نتدبر هل هي تتوافق مع ديننا الحنيف، أم أنه اتباع لما يفعله الآخرون دون تعقل فيما نفعله!. لذلك، فإن حرص الإسلام على الاهتمام بالآخرين والحفاظ على شعورهم دون انتهاك لحرياتهم، هو في مقدمة مبادئ الشريعة الإسلامية، حيث يقول الحديث الشريف: "لا ضرر ولا ضرار".

فإذا كان استخدام تلك المكبرات السمعية بصوت (سمعي) معين بحيث لا يتسبب من الإزعاج والقلق ما يرهق الآخرين، وفي الوقت ذاته يكون الصوت مفهومًا وواضحًا لسامعه، كما جاء في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً ﴾[2].

ويضيف فضيلة الشيخ: إن قراءة القرآن الكريم باستعمال مكبرات الصوت جائز شرعًا ما لم يشغل المصلين عن أداء الفريضة. ففي عهد رسوله ﷺ كان يُقرأ القرآن الكريم بصوت خافت للتدبر والتعلم. أما في استخدام مكبرات الصوت في الأذان فهو شيء محبب، وسُنة حسنة، الغرض منها الحث على أداء الصلاة، والتنبيه إلى دخول وقت الصلاة وإقامتها، والسرعة في إجابة نداء الحق عز وجل".

* * * *

(1) أستاذ بكلية الدعوة الإسلامية بجامعة الأزهر.

(2) سورة الإسراء: الآية 110.